



ريفيات

كاظم جهاد

- ١ -

في مساء القرية الأرجواني
شمس مطبوخة على مهل
تشبث بناصية السماء
وترفض الغروب .

هلاهل بعيدة
تعلن عن عرس
في منزل الأم صيحات مرتجلة .
بأصابعها الممهورة بالحناء
تودع الخطيبة
سنوات عزلتها بنسيج حقيقي .

كاظم جهاد، شاعر عراقي / باريس .

- ٢ -

لا حدود للأفق . نجمة الرعيان
تغمز ببالغ الدعة
لصورتها المنعكسة في الماء .

شبابه الراعي ما كفت عن الأنين
لا ندري
ما يتحسر عليه سائق القطيع .

- ٣ -

حمل يشغو
فراشة تتر في الجو الحالم
مشاعل جواله
تنشر على مدى الريف نورها البرتقالي .

جدع نخلة نحيف هو جسر القرية
بخفة يعبره الأطفال والشيوخ
من ملمس لحاء الشجرة الحائل
تعرف القدم طريقها بيقين .

نافثاً دخان سيجارته
يتابع أبي دوائر الدخان
يقول إنها تصنع كتابة في السماء

تكتفٍ بلغةٍ ما تزال مبهمَةً
أسرار الكيان .

- ٤ -

تنشر المرأة ثياباً ملوّنة
ترتبها في قوس قزح
الفلاح يحصد كفاف يومه
والحقول الصهباء
تنتشر عليها أسراب من الجراد .

في أذن الشاعر
تطن إشاعة سحيقة في القدم
نفسه تحدّثه عن آثار آثام قديمة .
أصفر هو الأفق . والعاصفة تُنذر .
قطعان الرعيان
ترجع وحدها إلى الحظائر
الرعيان منشغلون بحجر غريب
يحسبونه نازلاً من السماء .

- ٥ -

أرواح الموتى الصغار
ما فتئت تطلق صيحاتها .

نداهة لا تملّ من العويل هي الروح
إن أنت أضعتَ روحك ، يقولون ،
فلتبحث عنها في الطبقة الرقيقة
التي تتوسّط الماء وقيعان الأنهار
هناك تطلق الروح المنفصلة
عواءها الخافت الأبدّي .

عصائبُ سوداء
تحيطُ بهالة القمر البدر
طفلة الجار الميتة منذ أعوام
تظهر من النافذة وتختفي
« - لا لالا سبب تزورنا أرواح الموتى »
تقول الخالة المتجهمة
وتمعن في التخمين .

- ٦ -

صيادون
يمأون المسالك الوعرة
بجث الخنازير البرية
جواميس تدوس على شتلات الورد
الشاعر الناشئ يعانق نخلة منفردة
ويقول : ماذا لو حسبتها فتاتي؟

رهُطُ جِراء

يمرّ سائراً القهقري ونباح ذئاب
يسدل على القرية كآبة مقدّسة .

الجوّ مجلّل بالغموض
أزير محرّكاتٍ قريبة
يوهم بغزو آلّي . منذ أن زحفت المدينة
إلى مشارف الرّيف
بأشياءها المصنّعة وغرائبها
والأسلاف يبعثون برسائل إنذار
ملوّحين بعقم جارف
سيشمل الأبقار والنساء .

-۷-

طويلاً راقبَ الفتنية عيني الميت
منهما كان ينبعث حزنٌ ولا أشدّ
شيء ما في زاوية جفّنيه الأيسرين
ينبئ بأنّ صراعاً مع الموت
كان قد عاث بكيانه
في اللحظات الأخيرة
«- لا يبدو أنّه ارتضى موته»، يُعقب
واحدٌ من الشيوخ
ملخصاً الموقف كلّ .

حمرة الورود وزرقة السماء
دقيق الأحلام السائح وأبخرة الأنهار
الطنبي المشتعل في قيعان الجداول الناشفة
أي مستقبل يطلع من هذا كله؟ ،
يتساءل الصبي متفلسفاً .

تطيرات

تعبر فضاء القرية وتجعل النساء
يعتصمن في بيوتهن ثلاثة أيام متوالية
كان ينبغي أن يُعقر ثور
لتخرج القرية من بهوتها المفاجيء .

العُم الذي لم يتهيأ له
أن يقاتل الإنجليز قبل أربعين عاماً
يبتحي في آخر المضيف ركناً قصياً
وببالغ الندم يزدرد أيامه .

يحلم بفرصة قادمة
تُعيده بين إخوته الكبار رجلاً .

معركته القادمة إن حصلت

سيخوضها ولا ريب
مستنداً على عصاه
أو محمولاً على محفة الشيخ .

«- يكفي أن أشم رائحة بارود»،
عبارته الوحيدة
بها ينعم منذ أربعين عاماً
نهاره الطاعن في الأحلام .

- ١٠ -

طيلة خمسين عاماً
كان جدي ينتهج المسلك الشجري ذاته
الفاصل بين بيته ودارة إخوانه .
أشجار زرعها بيديه
تؤطر نهجه عن اليمين
وعن الشمال .
بين أشجار التمران والتوت
ينتصب شجر بلا رائحة
يقول هو إن عبقه النفاذ
يملاً حوائسه كلها
لأنه هو زارعه
ولأن الشجر ضنين بأريجه
على الغرباء .

كذلك هو جدّي
الذي لم أعرفه
والذي أستعيد هنا صورته
مهتدياً بكلمات أُمّي .

- ١١ -

في قلب مقبرة القرية
تُعقد الشيبية مهرجانها الربيعي .
يسقون القبور ماءً مبرداً
ويعلقون على الشواهد
أكاليل ريحانٍ وزهورٍ خشخاش
وفي آخر الحفل يُرخي
سدوله النعاس
على الصبية المحتقلين .

الجمهور النائم لا يكاد يُميز
عن ساكني القبور تحته .
بُهتةً واحدةً وعطلةً للشعور
مقتسمة .

غير واحد يفكر
بتبادلٍ موقعه والميت
ولن يكون ذلك بطراً
بحياةٍ يحسبها الجميع

كأهنأ ما تكون .

- ١٢ -

الفتاة المسكونة

بأوجاع جنسها التائق للصحة
ترفس في الرضاء مطلقاً
صراخها القوي .

بالعصي يضربونها تعزيماً
والفتاة تصرخ :
« - إنه في جسدي لمقيم » .

فجأة صحوها تستعيد
تبتسم من هديانها وتقوم
براءً من كل وسوسة
ومنيعة على الألم .

- ١٣ -

أمامنا يركض الخنزير البري
وبالعصي نركض نحن خلفه
لم تكن رغبتنا أن نصرعه
بل الجري وراء قوة غاشمة
تطويع الخوف

ذلك ما كان يحدو بنا إلى الرّكض .

في ذروة تعبته
توقف الحيوان ملنفتاً إلينا
كان في نظرتة شبه استسلام
فرجعنا أدر اجنا شاعرين
بتحوّل طراً على كلِّ منا .

لم أقل
إنّ كلاً منا
كان يستعجل البلوغ ويمضي ليلَه
متحسّساً ما بين فخذيه .

- ١٤ -

بين شجرتين
طلع لي مرّةً ثعبانٌ ضخّم
راح يتقرّسني بعينين هادئتين .
كان بالضبط يتفحصني
يزنني بنظرة عادلة
كمن يريد معرفة من كنت .
بكامل الهدوء
نهضتُ من جلستي القرفصاء
وبالهدوء نفسه
ماشياً القهقري عنه ابتعدتُ .

بوداعة هائلة
بقي الشعبان يتأمل خطواتي
كما لو كان يغبطني
بل يغبط في حقيقة الأمر نفسه
لأنني بسات الطفل
وهبته فرصة نادرة
ليتنصر
على سورة السم التي كانت
ولا شك متصاعدة فيه
كمحرار زئبق
تبقية برودة معينة
واقفاً لا يريم .

- ١٥ -

على الشجرة جوقه عصافير
يبدأ واحد بالغناء
وعند جملة معينة
يتوقف
ليتلقف الجملة طائر سواه
وينمبها .

بالغ التلاحم متماسكاً
كان ذلك اللحن المتسلسل .

عندما تبتعد الجوقة
يتواصل شدوها في دمي .

- ١٦ -

عمياء هي القبرة
- يقول الأسلاف -
من فرط الوجد .

نازلاً في الفضاء يرسم العنديل
دوائر مكتملة
طالما جعلتني أتساءل
عن سر رقصه الحلقّي هذا .

رصاصه صياد
لن تمحو الدائرة الأخيرة
المنقوشة في كبد السماء
بحبر حقيقي .

- ١٧ -

جارنا الميت
رفيقي في ألعاب الطفولة
ما برح يشغل مكانه
في ذاكرة الحقول .

خاطرُ الفِضَاءِ يتحدّثُ عنه
وحصباؤه الملوّنة به تُذكّر .
في اللّعب نترك له مكاناً
ولدى اقتسامِ قطعِ الحلوى المسروقة
من حانوت القرية المشرعة أبوابه
نحسب له حساباً .
الأغنية التي لا تُقلد
هي أغنيته
وفي هذا أيضاً
عرفَ أن يُبقي لنفسه
مساحةً شاغرة
إلى الأبد .

- ١٨ -

في الدّرب المُفضية إلى العراء
حيثما امتدّ ما كنّا ندعوه
بالعالم المجهول
تتنصب مقبرة القرية .

بعض قبورها كان
منزوع الشّاهدة حتّى لئدكر
بفم شاسع
فاغرٍ إلى الأبد يصرخ في الزّمان جوعه .

هذه الأضرحة المتثابرة
لا أحد فكّر بأن يردمها
إلى الأبد ستبقى
على سعتها مفتوحة
خطابها الصّامت لا أحد لِيَسْكُتَه
وشكواها الأليمة
يتلقّاها الجميع مثلَ بركة .

- ١٩ -

لم يكن ذلك عواء كلاب
بل شبه نشيد جنائزيّ
تطلقه الحيوانات في سعارها الغريب
باكية لا أحد .

ترمق القمر بنظرة شرسة
ويجنّ جنونها وتبدأ
عواءً طويلاً
يشرف عليه قائد أوركسترا
لا بدّ بين جموعها المترصّصة .

خائفاً على القمر يفكر الصّغير :
« - كلّ هذا العواء قد يُرجف في الليل قلبه » .

بشبات يتواصل
أزيرُ حشرات الرّيف
يرسم في الفضاء المحتقن بفحيح
كائناته المتعايشة على مضمض
جمالاً موسيقيّة
تهيمن عليها النبرات الحادّة
وتكاد تسمع فيها أحياناً
ما يشبه صرير منشار هائل
يقبض على الكون كلّهُ
تحت رحمة أسنانه المصفحة .

تجبل الطبيعة في المساء
برعبها الغريزيّ
وفي الصّباح تهدأ
عندما يستعيد عافيتّه
شدوُ أطيّارها الوقيّة .

أزيرُ وشدوُ
شدوُ وأزيرُ
يتعاقبان تعاقبَ النهار والليل
وفي خيالِ الطفل المسحور
يتبادلان
دورتين من الحبور والدّعر الهادئ .

حصانٌ أعرَج
بخطواته غير المنتظمة
على تربة الحقل النّاقعة بالماء
يرسم آثاراً غريبة .

ببالغ التّمهّل تواصل النّسور
معراجها في الفضاء
وببالغ الحسّم تنقّض
على قلب الفريسة .

أحياناً
يقطع الثّور سباحته المتسقة
وفي هندستها شبه المدرّسة
يُحدث خللاً
قد يكون محسوباً أو أملته
خفّة مفاجئة .

البطّ أغنيته خنّاء
الدورّي يتخيّر لقوته ناصج الثّمار
وخارج إرادة المجدّفين
يمخر القارب في عرض الماء
عارفاً وجهته المقرّرة .

- ٢٢ -

في غنائها المطرد
نهاراً بأكمله
تُفرغ المرأة سلتها
من الهموم .
عندما تحسب أن قد أدخلت
كاملَ جعبتها تستأنف الغناء
بالقدر نفسه حزيناً
وباكياً بالقدر نفسه
ناطقاً هذه المرّة بعناء الأسلاف .

- ٢٣ -

جارنا الذي في رحلة صيدٍ
صرعته طليقة طائشة
أتخيل ولعلي لا أخطئ
تفاصيل مساره الكثيف
من جهة الأحياء إلى مُنقلب موته .

في لحظات الصّحو القليلة
التي كانت قد بقيت له
أراح من التجديف قبضته الصّلبة
وترك القارب يتهادى

في عرض النّهر
الذي بدأت قطرات من الدم
تخضبه بأرجوانها العنيف .

بذلك الحنين المبهّم
طفقت صور طفولته تتداعى
في خاطره بكامل العذوبة .
أبصر السماء الرّائقة المرأى
تطلّ عليه من بين الأغصان
الزّرقه النّاعمة بدت له
لأوّل مرّة
فادحةً وعجائبيّة
وعندما دنا اللّيل
بدا له القمر مكتمل اللّغز
صندوقاً من الألم يرقى ناصية السّماء
يشيعه عويل جنائزيّ
تطلقه نساء القرية وكلابها الكثيرة .

من أغصان الشّجر
كانت تنهمر خضرةً سائقة
تمنى لو كانت وساده الأخير .

اللّيل نفسه
بدا له شيئاً مادياً
صرةً غامضةً ومظلمة

تكتنف الكيان

وتعده بنومة هائلة
ودّ لو استيقظ الآن منها .

ودّ لو يذرف دمعة أو اثنتين

لكنّ الألم كان يزيد صحوه

ويضاعف فيه الرغبة

في أن يفهم

ما الذي جاء به إلى هذه الرحلة

هو الذي كان يعشق خموله

ويلدّ له مرأى الأشجار

تحضنها

نظرة الكائن المتمدد على العشب .

لم يكن الأسف هو ما يشعر به

لا ولا رثاء ذاته

بل يقينه من أنّ الآلام

إن لم تطفئ في آخر الشوط وعيه

فستكون شيئاً محتملاً

لعبه قد يحدقها

مسعى قد يكون ماهراً فيه

أو خاطرة صغيرة .

في المساء تُعقدُ الذئاب
حلقتها المعهودة .
حول نقطة بذاتها تحتشد
وتُطلق عواءها الجنائزي .
ثم تتفرق وتبدأ بالعدو
لتعود من بعد إلى ذات النقطة
وتستأنف عواءها الطويل .

تجتمع الذئاب
فتشعر مثلنا بخطورة الشبيه
وما إن تنفرد حتى
يهمزها إلى الشراكة
جوئنا القديم نفسه .

«هل للأسماك إحساس بالترمن؟»

جاك دريدا

قبل أن تموت
السَّمكة المنقذة خارج الماء
تحرك خياشيمها بانتظام
وتوسّعها توقاً إلى الهواء .

وحده والدي بين الجميع
كان يعتقد بذاكرة للأسماء
ويفترض لها معرفة بالآلام .

مراراً أسمعُه أعداؤه
كلاماً كهذا :

«- من اعتقد بذاكرة سمكية
ما ربح في حياته غزوة واحدة» .

- ٢٦ -

في مرورها تكنس العاصفة
بيوتاً كثيرة
تمرّ أولاً بكوخ المجنون المتوحد
فيمتزج أزيزها بصراخه
عابراً الأجواء
منذراً الحوامل بولادة
سابقة لأوانها .
في طريقها تقتلع
أشجار الزان الضخمة
ومن أوراقها المذهبة
تصنع مهرجاناتاً جوالاً .
تحمل العاصفة إلى العجوز المختلة
مزيلاً من الهديان

والشيخ المترهل تذكره
برحلات بحرية
قام بها صبياً
وعندما تبلغ العاصفة
مزار الولي صاحب الكرامات
تنتحني لهنيهة إجلالاً
ثم تواصل زحفها الدائري
خرطوماً من الهواء والتراب
يخيف الكائنات والأشياء
وكلما مرّت العاصفة
ويقدر ما
تُخلف وراءها بين الأشجار
من قرابين وضحايا
يحسب الصبي أن وعيه
قد كُبر
واغتنى بصورة عنيفة أو اثنتين .

- ٢٧ -

صورة صورة وفكرة فكرة
يحسب الصبي سني نضجه
بات لا يتقدم صوب الأشياء
إلا بقدر ما تعد به
من كشف
المفاجأة صارت هي

شرط وجوده الوحيد
عندما لا يبقى ما يُدهشه
يشعر بشيخوخةٍ ثقيلة
تنشر على كتفيه معطفها الأسود .

- ٢٨ -

بدقةٍ مسّاح
تقضم اليساريع أوراق الأشجار
وتترك نهاياتها المشدّبة
جميلةً كزخرف
هكذا لا يغادر قدامى الفرسان
ميدانَ قتال
من دون أن يدعوا فيه
لسنةً مُحسنةً
هي دمغةٌ مروّهم بالمكان
وإلى القادمين هي رسالتهم .

- ٢٩ -

من حقلٍ إلى سواه
يتنقل الصبّي
ومن مخبأٍ إلى آخر
يفحص بعينه وأذنيه
يتشمّم الطرق مستنفرًا

كأفة حواسه
بكاء سرتي يتصاعد
لا يدري من أية بقعة
ذاهباً في كل اتجاه
من عروق النخيل يتصاعد
ومن ميازيب العرف الطيئة
ينهمر
لا يدري الصبي أي حلت يزيجه
ولا أية عين خفية به تفيض
لعله ضمير هذه الأرض المشققة
يعرب عن نفسه
بمثل هذا النواح شبه الصامت
من حين إلى حين .

- ٣٠ -

في العيد عقروا ثوراً كبيراً
برائحة شوائه تسربت البيوت
من خصيته أكل الأكل
ماسحين أصابعهم بأطراف الشفاة
الصغار قيل لهم ألا يقربوه
في اللحظة السابقة لذبحه
لأن نظرتة المعاتبه
إن هي نفذت إلى داخل طفل
فلا فكاك له منها بعد ذاك أبداً .